تفّـــاح الظـلّ

* ياسين عـــــدنان*

كان عليّ في الحقيقة أن أكتب هذه القصة منذ خمس سنوات؛ فالحكاية حينها كانت طريةً ما تزال في القلب والوجدان. لا أخفيكم أنّني حاولتُ ذلك غيرَ مرة، لكنْ دون توفّق. فقد كنتُ أجد صعوبةً في وصف رجاء، خصوصًا في المشهد الأول حين طَرَقتْ بابي أولَ مرة. تلك الجرأة المُفاجئة الصادرة عن كائن شفاف وخجول: ذلك هو بالضبط ما كنتُ أَفشل في وصفه، فأمزِّق المسوَّدةَ وأخرج. وكنتُ كلّما تمنَّعَتْ عليَّ الكتابةُ أَصْفق البابَ ورائي وأغادر إلى الحانة، لكنْ مع هذه القصة بالذات كنتُ أفضّل الذهابَ إلى الحديقة المجاورة. لماذا الحديقة بالضبط؟ ولماذا مع هذه القصة بالذات؟ لستُ أدري. هناك أمور كثيرة لا نستطيع شرحَها: الطريقة التي دقّت بها رجاء البابَ مثلاً، والثقة التي خَطَتْ بها داخلَ الشقة وهي تقول: «اسمحْ لي أن أدخل أولاً،» ثم الطلاقة الصاعقة التي أسرَّت بها شعورَها نحوي، دون أن تنسى التلميحَ إلى أنّها تعرف أنّه متبادَل؛ فكلّ الرسائل التي بعثْتُها إليها طوال السنة الدراسية كانت تصل، ويبدو أنّني **أنا** مَنْ كان يَفْشل في فكّ شفرات الأجوبة مع الأسف.

هناك فعلاً أمور لا يُمْكن شرحُها. فمباشرةً بعد أن قالت رجاء كلَّ شيء، وبعد أن هرّبتُ ارتباكي إلى المطبخ لأُحضِّر لها عصيرًا، كانت البنت قد استعادت خجلَها الساحر. عُدت إلى الغرفة ووجدتُها منكمشةً من جديد. ورغم أنّني بدأتُ أهرّج كعادتي حين أكون مرتبكًا، إلا أنّها كانت قد دخلتْ قوقعتَها الصغيرةَ ولم تعد قادرةً حتى على رفع بصرها في وجهي. في البداية، أعني في المحاولات الأولى، كنتُ أبدأ بوصف رجاء وهي تَطْرق البابَ ثم وهي تدخل. كنتُ أحاول وصفَ جرأتها وأذكّر القارئَ بعد كلّ جملة بخجلها الأصيل. لكنّني كنتُ أفشل صراحةً. كنتُ أحيانًا أكتب صفحتين كاملتين، وحين أتجاوزهما دون أن أصف المشهد كما تلقيتُه وأحسستُه بالضبط أمزِّق المسوَّدةَ ولاسيّما أنّ هذا المشهد ليس أكثرَ من بداية للقصة الحقيقية لا قصة رجاء وحدها، بل وقصة نعمة أيضًا.

...

رجاء كانت تلميذةً عندي لموسم دراسيّ كامل. كانت بنتًا صغيرة بوجه صبوح ساحر، وجسدٍ ضئيلٍ ملفوفٍ على الدوام في وزرة مدرسية بيضاء. لكنّ لمعةَ الذكاء في عينيها، وورِدَ الخجل المتفتّح على الدوام في وجنتيها، كانا كافييْن لأتورّط. لم يكن حبًا في الحقيقة، وإنّما فرحًا أبيضَ دافئًا ولذيذًا؛ فرحًا بها وبحضورها الشفيف. كنتُ أُحسّها نسمةً منعشةً أَسْعد بها في الصباحات وهي تَلفح وجهي وتتسرّب عبر فتحة القميص لتدغدغَ جسدي كلَّه. في محاولاتي السابقة كتبتُ كثيرًا من هذا الكلام. شيءٌ كالشعر كنتُ أَصِفُ فيه حضورَها البهيّ وطبيعةَ إحساسي بها قبل تلك الزيارة. لكنّني اليومَ سأحاول المرورَ مباشرةً إلى صلب القصة دون استفاضة في التمهيد.

نسيتُ أن أخبركم أنّ رجاء حينما طَرقت الباب واندفعتْ إلى الداخل لم تكن وحدها. كان وراءها ظلٌّ من لحم ودم. لذا حينما أَحْضرتُ العصير وجلستُ قبالتها قلت: «لم تُعرِّفيني برفيقتك؟» فأجابت في خفر بعينين خفيضتين: «إنّها نعمة. صديقتي الوحيدة. بحال نفسي. اِعتبِرْها غيرَ موجودة.» ومنذ ذلك اليوم صارت نعمة دائمًا معنا. وكنّا دائمًا نعتبرها غير موجودة، حين نَحْضن بعضَنا ونتبادل القُبَل، أو نتحرّك في الشقة شبهَ عاريين. بل حتى حينما نكون في غرفة النوم، كانت نعمة تداهمنا أحيانًا فتفتح الباب لكي تسأل: «أين وضعتَ السكّر؟»

لم نكن نخفي عنها حميميّتنا. كانت ظلاً حقيقيًا لرجاء. ولم أكن أفهم علاقتَهما. صحيح أنّ نعمة ليست جميلة. لكنّ هذا لا يمنع أنّ لها جسدًا بدأتْ مفاتنُه تتفتح، والأكيد أنّ له نداءاته السريةَ المشتعلة. غير أنّ نعمة كانت تبدو سعيدةً بوضعها؛ فقد كانت تكتشف الحبَّ والرَّجُلَ واللذةَ عبر رجاء، وعبر حكايات رجاء. والأكيد أنّها تعرف حتى الأشياءَ البالغةَ الخصوصية التي تحصل بيننا في غرفة النوم، فرجاء تحكي لها كلَّ شيء، كلَّ شيء، مهما بدا صغيرًا وتافهًا، ومهما كان خاصًا وحميميًا.

...

لكنّ المدى المذهل الذي بلغتْه علاقتُهما لن أدركه إلاّ حين مرضتْ رجاء. فقد كانت رجاء وظلُّها تزورانني مرتين في الأسبوع، مساءَ الثلاثاء ومساءَ الجمعة. ثم مرضتْ رجاء وأجرت عمليةً جراحيةً ألزمتْها السريرَ شهرًا كاملاً. فراحت نعمة تزورني. تحرص على أن تملأ الشقةَ بالصخب الجميل الذي كانت رجاء تنثره في أرجائها، خصوصًا بعد أن غادرتْ خجلَها الأولَ وصارت أكثر انطلاقًا في علاقتها معي. مرةً ونحن في مرحنا الأبيض السعيد رنّ الهاتف. هاتفي في غرفة النوم جنبَ السرير مباشرةً. هرعتُ إليه. حملتُ السمّاعة واستلقيتُ على السرير وقلت: «ألو..»

* - قاصّ وشاعر مغربيّ. أصدر ديوانيْ شعر (**مانيكان، ورصيف القيامة**) ومجموعة قصصية واحدة (**من يصدِّق الرسائل؟**)

كانت هي. تمامًا كما توقّعتُ. أقصد كما تمنيتُ.

ـ رجاء حبيبتي، كيف أنتِ الآن؟

ـ بخير. لقد خرجتْ ماما قبل قليل، فتسللتُ إلى غرفة نومها لأهتفَ لك. قل لي، هل نعمة هناك؟

ـ طبعًا، حبيبتي، إنّها هنا. في الغرفة الأخرى. هل أناديها لك؟

ـ .....

وجاءت نعمة واستلقت إلى جانبي، وبدأنا نكلّمها معًا. قالت رجاء إنّها اشتاقت إليّ. فقبّلتُها على الهاتف. لكنّ ذلك لم يكن كافيًا. قالت إنّ حرارة القبلة لم تصلْها، وطلبتْ منّي أن أقبّل نعمة من أجلها، أن أُغمضَ عينيَّ وأفكّرَ بها وأطبعَ قبلةً حارةً على شفتيْ نعمة. «إنما يا حبيبتي...» لكنّ شفتيْ نعمة كانتا حاسمتيْن. تبادلنا القُبلَ لأزيد من عشر دقائق، ورجاء تتأوّه في السمّاعة. صوتُها يصلني كأنّها معي. وأنا أَغْرق في شفتيْ نعمة. ورجاء تتأوه. ثم طلبتْ منّي أن أُمسك بنهدها الصغير. ورغم أنّ نهد نعمة كان أنضجَ وأشهى وأكثرَ امتلاءً، لكنّني ما كنتُ لأخون رجاء. لذا تخيّلتُ نهد رجاء الصغير وأَطبقتُ عليه. بدأتُ أمصمصه كما كنتُ أفعل دائمًا مع رجاء. أمصمص الحلمةَ وألحسها بلساني، والنهدُ الشهيُّ يتفتح أمامي كزهرة برية تُسقى لأول مرة. كنتُ أفكّر في رجاء وأنساها، وهي تتأوه في الهاتف. وأما نعمة فبدت حريصةً على أن تَحْبس أنفاسَها المتقطّعة، وإذ تتأوه كانت تفعل ذلك بصوت كتيم.

...

ظلت نعمة تأتي. وكلّما خرجتْ أمُّ رجاء لشأنٍ، تَحْمل الشقيةُ السمّاعةَ ونبدأ. وحينما لا تتصل، نجلس أنا ونعمة بشكل عاديّ في الغرفة الأخرى، نَلْعب الورقَ ونَسْمع الموسيقى، أو نتفرج معًا على التلفزيون. أشتهي مرارًا أن أحضنها وأن أُقشّر تفاحتيْ صدرها، لكنّني ما كنتُ لأخون رجاء. ما كنتُ لأفعل وصوتُها ليس هناك. لذا كنا نجلس هادئيْن إلى أن يرنّ الهاتف. وحين لا يرنّ لا شيء يشتعل بيننا.

عادت رجاء. عادت إلى زيارتي مرةً أخرى. هذه المرة تركتْ ظلَّها يَطْرق البابَ ويتقدّم أولاً، واختفت هي وراءه. لم تخبرني أنّها قد عادت إلى حياتها الطبيعية وأنّها غادرت السريرَ منذ يومين. أرادت مفاجأتي. كم أحبُّ هذه البنت! حينما عانقتُها في الباب أحسستُ نفسي خفيفًا كريح. رشيقًا كفراشة. مصطخبًا كموجة. ولا أعرف كيف حلّقْنا كروحٍ طائرةٍ لنجد جسديْنا ممدديْن على السرير. كانت رجاء تقبّلني وتبكي. وكان جسدها قد استحال بُحيْرةً مقدسةً وأنا أعوم فيها وأسبح.

لكنْ، ما بالُ الماءِ يزيدُ ويصطخب داخل هذه البحيرة التي ألِفْتُها هادئةً؟ أحسستُ وكأنّ موجًا دافئًا يتسلّقني ويتكسّر على ظهري فيدغدغه. وحين التفتتُ، كانت نعمة عاريةً هي الأخرى إلى جواري، تَلْحس ظهري وتقبّله وتَدْفن وجهَها بين كتفيّ. وكان نهداها ملتصقيْن بظهري من الخلف، يَمْرحان فيه كمهريْن شقيّيْن يلهوان فوق مرج أخضر. لم أفهم كيف حصل ذلك، ولم أكن أتخيّل حدوثَه. لكنّه حصل وتكرر. فلم أعد أعرف أين ينتهي جسدُ رجاء ومتى يبدأ جسدُ نعمة. ففي السرير كانا يستحيلان بحيرة. بحرًا. بحريْن. فمن يستطيع فصلَ الماء عن الماء؟

...

لكنّ نعمة ستبقى رغم ذلك ظلاً. فحتى وهي في أقصى حالات اللذة كانت تَكْتم تأوهاتها. وكأنّ كلّ أنّةٍ التذاذٍ تصدر عنها خيانةٌ لرجاء. وأنا أيضًا لم أكن أَنطق غير اسم حبيبتي. وكانت نعمة بيننا: جسدًا أخرسَ يتلوى بلا صوت، ويتلذذ بلا صوت، وبلا صوتٍ ينتشي. وحين تنتشي كانت تنسحب من السرير إلى الخارج، تهيئ لنا شيئًا: عصيرًا في الصيف وشايًا في الشتاء. ثم تَطْرق علينا البابَ بأدب وتُطلّ برأسها الصغير وهي تردّد مازحةً: «ألم تتعبا بعد؟ تعالوا نشربْ شيئًا قبل أن نغادر.» ثم مُوجِّهةً حديثها إلى رجاء: «لقد تأخرنا.» وكنّا نشرب عصيرَنا في الصيف أو شايَنا في الشتاء وتنسحب البنتان. وفيما كنتُ أقبّل رجاء عند الباب مودّعًا، كانت نعمة تمدّ لي يدَها مصافحةً. كنتُ أصافحها فقط، وحين تغادران أفكّر في رجاء كثيرًا وأشعر بسعادةٍ بالغةٍ لأنّني عثرتُ لها في البحيرة على تفاحتيْن أشهى. أكثرَ نضجًا وامتلاء. ولم أكن مع ذلك أفكّر في غيرها، حتى وأنا أكتب الآن هذه القصة.

لكنّ نعمة ظلُّها. فمَنْ يجرؤ على فصل الجسد عن ظله؟ مَنْ؟ ثم إنّ تفّاح الظلّ أشهى... لو تَعْلمون.

ورزازات